التزاوج بين المصطلحات تحت مظلّة الزمان والمكان تترادف في كثير من الأحيان؛ لترسم معالم صورة تختلف دلالاتها وأسرارها، وتتّحد من جهة أهميَّتها وأثرها، فبين عرفة وعرفات بون الزمان والمكان. فعرفات هو الجبل الذي يقع في شرق مكة، وقيل إنها البقعة التي تمّ فيها اللقاء الأوّل بين آدم وحواء فتعارفا بعد خروجهما من الجنة، وعلى هذا فإنّ عرفات إشارة إلى المكان، وأما عرفة فهو الزمان وتحديدًا هو التاسع من شهر ذي الحجّة المباركة حيث الكرامات الكثيرة واللحظات التي ينشغل فيها عباد الله المؤمنين بدعائه ومناجاته ولاسيما بعد الزوال إلى الغروب.

والأسرار في عرفة كثيرة فبعد أن كان يومًا لتعارف أبينا آدم وأمّنا حواء في عرفات، حيث امتدّ الخير والبركات، وابتدأتهما الرأفة والرحمة بعد طول انتظار وشوق اللقاء؛ ليكون هذا اليوم يوم الفقراء إلى الله ينتظرون رأفته ورحمته كما رزق آدم وحواء. وزيادة على ذلك قد قيل إن جبرائيل (عليه السلام) صاحَب نبي الله إبراهيم (عليه السلام) في يوم عرفة وعرَّفه المشاعر والمشاهد وكان يردّد عليه القول (أعرفت أعرفت)؛ ليكون هذا اليوم وفي هذا المكان عنوان المعرفة الموجّهة والخالدة.

ولعلَّ سائلًا يسأل عن الغنيمة في يوم عرفة سواء لمن رزق الوقوف بعرفات أم غيره، فالحق أنّ الغنيمة الكبرى في هذا اليوم هي انتصار الإنسان على نفسه الأمّارة بالسوء، وقدرته على الاعتراف بالذنب والتقصير ووقوفه بين يدي الله تعالى مناجيًا وداعيًا؛ ليدخل إلى ساحة الرحمة الإلهية بعد أن أبعدته الذنوب والموبقات، وهذا من أسرار الخروج إلى عرفات، حيث يكاشف الحاجُّ ربه فيغفر له ويتوجّه إلى المشاعر العظام نقيًّا تقيًّا، فينطلق من المزدلفة ليقترب من ربه فيقبل الله تعالى تقرَّبه في تلك الساحة الجرداء حيث الجميع يقف مبهوتًا وتلغى الامتيازات فيكون الغني والفقير على السواء والرئيس والمرؤوس ولا فرق بين كبير ولا صغير ولا بين أسود وأبيض إلّا بالتقوى ومقدار القرب من الله، ولتشهد هذه البقعة من المزدلفة على ضعف الإنسان وغربته عن كل محيطه الذي قد اغترَّ به.

والحقيقة التي تنكشف في عرفة وعرفات هي دورة الحياة اليومية، وفيها بيان أن من يقترف الذنوب فهو مطرودٌ ومن يعترف و يرجع عن غيِّه فهو مرحوم ، وتثبت أن مراجعة الحقّ خير من التمادي في الباطل؛ ولتكون عرفة عيد القبول عند الله وانتصار العبد وهزيمة قوى الشرّ والضلال.

وعلى هذا فإنّ يوم عرفة يوم الانقطاع إلى الله تعالى، فينبغي على العبد أن يجتهد في السؤال و يوقن بالإجابة من عند الله تعالى؛ و يصرّ عليها فلحظات عرفة قد لا تعود، ومن فاتته فقد فاته خير كثير، و يبقى الدعاء زينة يوم عرفة وشعاره لمن أراد اللحوق بركب الأوّابين وقصد وسيلة الصالحين؛ لينال درجة القبول و يكون من المغفورين.